لماذا رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي ؟

بقلم : د. عبد العظيم الديب

□□ رأينا تشويه تاريخنا في صور كثيرة ، من بترٍ للنصوص ، واختيار لبعض الوقائع والأحداث دون بعض ، ومن تفسير للأحداث والأعمال حسب الغرض والهوى ، وعن طريق (الإسقاط) لما في نفوسهم من مشاعر ، وما في واقعهم من فساد وانحراف ، وغير ذلك من الوسائل كثير □□

.. وهكذا

ولكن الذي لم نكن نتصوره أن يصل الأمر إلى قلب الحقائق رأساً على عقب صراحة ، وتحويل المحاسن إلى عيوب ، والمفاخر إلى نقائص ، وما يعد ضوءاً في جبين الدهر إلى سبة وعار .

والأدهى من ذلك أن هذا يتم باسم البحث (الأكاديمي) ، والمنهج العلمي ، ومراكز الدراسات ، ونزاهة الفكر ، وحرية البحث ، وفي أروقة الجامعات ، ومحراب العلم . . . إلى آخر هذه التهويمات والجعجعات التي يستهوون بها المخدوعين من أبنائنا ، والمبهورين المدحورين من دارسينا ، فترى الواحد منهم يشمخ بأنفه ، مباهياً أنه سمع من المستشرق (فلان) أو أنه درس في القسم الذي يرأسه (فلان) ، أو الجامعة التي فيها (فلان) بل يباهي أحياناً بمجرد أنه قرأ (لفلان) .

وبكل الصدق أنا أعذر هؤلاء ، فالقوم يحسنون التأتي لما يريدون ، ويجيدون الدخول إلى عقول أبناء أمتنا ، ويعرفون كيف يشكلونها ، وبأي طريقة يصوغونها ، فمن تظاهر بالحيدة العلمية ، وتجرد للبحث ، وإخلاص للحقائق وحدها ، إلى نحو هذه الشعارات البراقة ، ومن حسن استغلال للعلاقات الشخصية ، فيتظاهرون لأبنائنا بحبهم لهم ، وحدبهم عليهم ، ويتخذونهم أصدقاء وأبناء ، يفتحون لهم بيوتهم ، ويقدمونهم لأبنائهم وبناتهم وزوجاتهم ، فيشعرونهم بالأمن والاطمئنان في مغتربهم ، ويكونون دائمًا في قضاء حوائجهم وتيسير مطالبهم ، وما يزالون بهم حتى يمتلكوا قلوبهم ، فيصوغوها كما يشاؤ ون .

وعادةً يرى أبناؤ نا ما عليه القوم من تقدم ورفاهية ، ومن نظام وضبط للأمور ، وحرص على الوقت والجهد ، ومن إمكانات مذهلة في مجالات الحياة المختلفة ، فيخيل إليهم أنهم إن أخذوا مواقعهم ، واعتنقوا أفكارهم ، وقالوا بمثل قولهم أصبحوا مثلهم ومعذورون أبناؤ نا حينما يوازنون بين أحوال بلادنا وبلادهم ، فيلذؤ ون اللقاء وهم مبهورون ، وكثيراً جداً ما يتحول المبهور إلى مدحور .

ولا تعجب بعد ذلك إذا وجدت من يتابع هؤلاء ، ويشايعهم ، فيرى في (الحركات السرية) مثل الباطنية والقرمطية حركات إصلاحية تحررية ، ناطقاً بلسان أساتذته ، مخالفاً كل أئمة

الفكر والتاريخ الإسلامي فيما قالوه عن هذه الحركات .. ولله في خلقه شؤون ..

قلب الحقـــائق ...

واليوم نعرض أنموذجاً لهذا التزييف للتاريخ يصل إلى حد قلب الحقائق ، فعلى حين تفاخر أمتنا بهذه القضية التي لم تشهد الدنيا منذ خلقها الله مثيلاً لها ، حين يضرب العدل بجرانه ، ويشمل أمتنا كلها بظله ، أيام أن كانت تمتد من الأندلس وجنوبي فرنسا غرباً حتى حدود الصين شرقاً ، ويصبح العدل فيها مناخاً يتنفس فيه كل من تظله راية الخلافة الإسلامية ، ونسيماً يستنشقه كل من ينتسب إلى دولة الخلافة الإسلامية ، ذمياً كان ، أو معاهداً ، أو مسلماً على سواء .

تفاخر أمتنا بهذه القضية التي رفعها أهل (سمرقند) على القائد المسلم (قتيبة بن مسلم الباهلي) ، لأنه - فيما قالوا - قاتلهم على غرّة ، ولم يعلن عليهم الحرب ، فانتصر عليهم ، وفتح مدينتهم !!!

ناهيك عن قبول الدعوى ، والنظر في القضية ، والحكم فيها !!

والقضية والحكم فيها واردة في (الطبري : ٥٦٨/٦) وسأعرضها بصياغة العالم الداعية الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله :

وقد قوم من أهل سمرقند إلى الخليفة ، فرفعوا إليه أن قتيبة قائد الجيش الإسلامي فيها ، دخل مدينتهم ، وأسكنها المسلمين غدراً بغير حق ، فكتب الخليفة إلى عامله هناك ، أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى بإخراج المسلمين من (سمرقند) أخرجوا .

فنصب لهم الوالي قاضياً ينظر في شكواهم .

فحكم القاضي (وهو مسلم) بإخراج المسلمين !! على أن ينذرهم قائد الجيش الإسلامي بعد ذلك ، وينابذهم وفقاً لمبادىء الحرب الإسلامية ، حتى يكون أهل (سمرقند) على استعداد لقتال المسلمين ، فلا يؤخذوا بغتة .

فلما رأى ذلك أهل (سمرقند) رأوا ما لا مثيل له في التاريخ ، من عدالة تنفذها الدولة على جيشها وقائدها !!!

قالوا : هذه أمة لا تحارب ، وإنما حكمها رحمة ونعمة ، فرضوا

يحرفون ويشوهون تاريخنا

ألا تصيخ الدنيا آذانها ، وتلقي إلينا سمعها : بلدة مغلوبة ، تشكو غالبها ، ومدينة مفتوحة تشكو فاتحها ، ولمن تشكوه ؟ تشكوه لقيادته !! تشكوه للخليفة (القائد الأعلى) !!

لا يعنيني كيف تلقى الخليفة الشكوى ، وكيف تصرف بها ، ولكن يكفيني أن يرد بخاطر أهل المدينة (سمرقند) أن يقدّموا شكوى ضد القائد الفاتح الذي دخل بلادهم ، وانتصر عليهم .

مجرد أن يرد هذا الخاطر عند أهل (سمرقند) وهم هناك في أقصى المشرق ، وبينهم وبين الخليفة الذي سيشكون إليه هذه الآلاف من الأميال ، مجرد أن يرد هذا الخاطر ، وبين (سمرقند) و (دمشق) ما بينها ، له مدلوله ، كيف أدرك أهل (سمرقند) أن الخليفة يمكن أن يستمع لشكواهم ؟؟

لا شك أن شيوع (العــدل) كان بحيث يصل خبره ، ويعرف ذكره على بعد ما بين (دمشق) و (سمرقند) [تقع سمرقند الآن في الاتحاد السوفييتي ، في إحدى الجمهوريات الإسلامية الأسيرة] ..

ناهيك عن موضوع القضية !! شكوى مدينة مفتوحة لفاتحيها !!

ببقاء الجيش الإسلامي ، وأقروا أن يقيم المسلمون بين أظهرهم ، ا. هـ [من روائع حضارتنا ص١٠٢] .

هذه صفحة من تاريخ أمتنا تضيء ظلام الدنيا كلها ، وتوقظ ضمير البشرية ، وتحيي النفس الإنسانية ، وما أظنها تحتاج إلى تفسير ، أو تأويل ، أو تقديم أو تأخير .

كيف نظر المستشـــرقون إلى هذه الصفحة ؟؟

سأترك الحديث للمستشرق الشهير (ج . فان فلوتن) وهو من المعنيين بالتاريخ الأموي والعباسي ، ويعتمد على كتابته كثير من المؤلفين (الدكاترة) ، حيث تجد اسمه مبثوثاً في هوامش كتبهم ، ينقلون عنه ويرجعون إليه ، وهم معذورون ، فالرجل قدم أطروحته بعنوان : (نشأة الحزب العباسي في خراسان) وصاحب كتاب (السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية) الذي ترجمه المؤرخ المشهور الدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور محمد زكي إبراهيم في سنة ١٩٣٤م ، وأعاد ترجمته الدكتور إبراهيم بيضون باسم (إتجاهات في السيطرة العربية

.. وهكذا يحرفون ويشوهون تاريخنا

والتشيع والمعتقدات المهدية في ظل خلافة بني أمية) سنة ١٩٨٠م .

أعني أن (فلوتن) ليس ضيفاً على مائدة التاريخ ، فهو مؤرخ بحالة في الفترة ذاتها التي نتكلم عنها .

وها هو كلامه بنصه عن ترجمة إبراهيم بيضون :

« شكا أهل سمرقند ظلامتهم للخليفة ، وما نزل بهم من خراب وتدمير على يد قتيبة !!

فأمر بتعيين قاضٍ خاص للنظر في هذه المسألة ، وجاء قراره من (الخبث) ما يبدو واضحاً لأي قارىء متجرد ، حيث قضى بأن يتحارب الفريقان - العرب وأهل سمرقند - وراء أسوار المدينة ، وأن يؤخذ هؤلاء بالقوة قبل عقد معاهدة جديدة معهم .

فإذا ما انتصر العرب - وهو ما كان محتملاً - (حيث فقد أهل سمرقند خاصية الدفاع عن مدينتهم داخل أسوارها) عادوا مرة أخرى إلى فتحها عنوة ، وانطبقت عليها شروط الاحتلال العسكري ، إلا إذا امتثلوا لتلك الشروط التي فرضها العرب عليهم ، أي : ان قرار القاضي لم يغير شيئاً في وضع المدينة » ا. هـ من ص٦٨ ، ا. .

لا تعليق ...

والأمر بهذه الصورة ليس بحاجة إلى تعليق ، فحينما يصل التحريف وقلب الحقائق إلى هذا الحد لا يكون هناك مجال لتعليق !!!

إن الجيوش الإسلامية ، ما كان لها من هدف إلا فتح طريق الدعوة إلى الإسلام ، وكانوا يعلمون على القوم ، فيخيرونهم بين واحدة من ثلاث : الإسلام - الجزية - القتال .

فإذا حارب قائد إسلامي مدينة ، وفتحها ودخلها منتصراً ، ثم جاء أهلها يزعمون أنهم أخذوا على غرة ، وشكوا الجيش وقائده إلى الخليفة ، واستمع الخليفة إلى الشكوى ، وأمر بأن ينصب لهم قاضٍ ، ويقبل القاضي الدعوى ويسمعها ، ويحكم - ويا للروعة والجلال والعظمة - يحكم بإجلاء الجيش الإسلامي عن المدينة !!! قاضي الأمة يحكم بإجلاء جيشها عن المدينة التي فتحها !!! يحكم على الجيش بالخروج ، ويبدأ من نقطة الصفر .

أين الخبث ؟!

إذا كان هناك من يرى في هذه النصاعة ، والطهارة (خبثاً) فليدلنا على الطهر والاستقامة أين تكون ؟

ومن عجب أن يقول المستشرق العظيم ، وربيب الأكاديميات ، وسادن الفكر ، وحامل لواء (المنهج العلمي) ، يقول : إنه خبث يبدو واضحاً لأي قارىء متجرد . .

وأنا أقول : نعم ، يبدو الخبث واضحاً لأي قارىء متجرد ، لكنه ليس في حكم القاضي ، ولكنه في قلم المستشرق وقلبه .

وحينما نضع هذه الرؤية لهذا المستشرق ، لهذه الصفحة الناصعة من تاريخنا وكيف رآها سوداء (خبيثة) واضحة الخبث (لأي قارىء متجرد) على حد تعبيره ، حين نقوم بذلك نرجو من القارئين والباحثين أن ينظروا ويتأملوا ، ثم يتابعوا البحث ليعرفوا في أي حد أسود يغمس هؤلاء أقلامهم التي يكتبون بها .

كلمة ...

وإذا بقيت كلمة نقولها ، فهي : أنه لابد أن يكون كاتب التاريخ الإسلامي مسلماً - لا لمحابي أو يجامل - بل لتكون لديه القدرة على استيعاب الحدث التاريخي وتفسيره ، فإن إدراك مقومات النفس البشرية جميعها : روحية وفكرية وحيوية ، ومقومات الحياة البشرية جميعها : معنوية ومادية ، أمرٌ لازم وضروري لفهم الحادثة التاريخية وتفسيرها ، حتى يفتح المؤرخ روحه ، وفكره ، وحسه للحادثة ، ويستجيب لوقوعها في مداركه ، ولا يرفض شيئاً من استجاباته لها إلا بعد تحرج ، وتمحيص ونقد .

وأول ما تتسم به البحوث (الاستشراقية) عن الموضوعات الإسلامية هو نقص الاستجابة ، لأن الطبيعة الغربية - بصفة عامة - ينقصها عنصر الروحية الغيبية لكي تدرك الحياة الإسلامية إدراكاً كاملاً .

وهذا النقص يعد عيباً في منهج العمل التاريخي ذاته ، وليس مجرد خطأ جزئي في تفسير حادثة ، أو تصوير حالة ، ومن هنا فمناهج المستشرقين غير صالحة لدراسة الموضوعات الإسلامية ، خاصة التاريخ الإسلامي . ارجع في هذه الجزئية إلى : سيد قطب رحمه الله (في التاريخ : فكرة ومنهاج) .

ولعل في تعليق (فان فلوتن) على قضية (سمرقند) بعد أن قلبها بهذه الصورة ما يؤكد هذا النقص في الاستجابة للحادثة التاريخية ، مما يشهد بخلل المنهج وقصوره ، قال (فلوتن) معقباً : « وهذا يظهر لنا جيداً الفكرة التي خالجت العرب وزعماءهم عن المهمة الموكولة إليهم في الشرق ، فقد وضع كل منهم مصلحته الشخصية في المقام الأول ، بينما احتل الإسلام المرتبة الثانية من اهتماماته » .

هكذا يعزو الفتوح إلى الرغبة في الغنائم ، وزيادة الموارد ، والسيطرة ، ثم يأتي الإسلام بعد ذلك .

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ .